التعايش السلمي في القرآن الكريم
من خلال سورة آل عمران

إعداد الدكتور
الولي محمد محمود الشنقيطي
أستاذ التفسير المساعد
جامعة الطائف – فرع الخرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق البشر من أصل واحد، وفطرهم على دين واحد، وأعطاهم العقل لينظموا به حياتهم، ويدركوا به أهمية التعاون والتفاهم في تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، لا ليختلفوا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وخاتما للرسل أجمعين، ومبلغا للرسالة الجامعة لما فيه فلاح البشر إلى يوم الدين.

وبعد فإن الإشكال الذي سيناقشه هذا البحث المختصر يتمحور حول تبيان أهم معالم الأرضية المشتركة بين المسلم الملتزم بثوابته من جهة، وبين من يخالفه في آرائه ومعتقداته من جهة أخرى، عبر محاورته في حدود العقل والشرع، ومعاملته بالتي هي أحسن؛ كي تتحول العداوات القائمة بين كثير من الناس اليوم إلى ولاية حميمة .

وتتجلى أهمية هذا الموضوع في كونه يخدم السلم الاجتماعي، ويحاول إنصاف كل الأطراف، ويروم إظهار ملامح من الصورة الحضارية الناصعة لشريعة الإسلام، ومنطقها العقلي الرصين، ودعوتها إلى الرفق في كل شيء؛ فقد قال نبي الرحمة ـ عليه أزكى الصلاة والتسليم ـ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ)[1].

ويسعى إلى أن يمد طلبة العلم والناشئة ـ ولو بشكل جزئي ـ بوسائل تساعدهم على تنمية روح محاورة الآخرين، والاعتراف بهم؛ وفق ما تمليه طبيعة الثوابت الشرعية، وما ترشد إليه القيم الإسلامية السمحة، على أمل أن يسهم هذا

---

١ ـ ونص الحديث كما جاء في صحيح البخاري عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ "، أخرجه البخاري في بَاب الرِّفْقِ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، رقم: ٦٠٢٤، ١٢/٨.

الجهد المتواضع كذلك في إبراز الجوانب المضيئة في حياة المسلمين المستنيرة بالهدي القرآني، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يمتلك مقومات الحياة المثالية في المعتقدات والمعاملات والأخلاق.

علاوة على أنه يمكن أن يساعد في تلميع صورة المسلمين، وتحسين سمعتهم التي تضررت اليوم كثيرا بسبب العنف الذي يلجأ إليه البعض في مناطق كثيرة من العالم من وقت لآخر، ومن الاحتكام إلى القوة مع العدو في ساحات شديدة الخطورة بوسائل غير متكافئة، وفي ظروف غير ملائمة، وبأفكار تتحكم فيها العواطف أكثر من تكم العقل والمعرفة؛ ومن المؤسف أنّ الضحايا غالبا من المسلمين، خاصة الأبرياء الذين يدفعون ثمن ذلك العنف باهظا؛ إذ يجدون أنفسهم في كثير من الأحيان في مرمى نيران، لا ناقة لهم ولا جمل في إضرامها، ولا يتحكمون في وسائل إخمادها.

وتتلخص أهم الصعوبات التي يواجهها الباحث في هذا الموضوع في كونه يعالج قضايا شائكة، ويواجه بعض التحديات الفكرية التي يصدر بعضها عن التعصب، وبعضها عن الجهل، وربما يصطدم ببعض المفاهيم الفكرية التي سادت في الأزمنة المتأخرة نتيجة غياب الترشيد والعقلنة، وبروز الروح العاطفية على حساب التفكير العلمي المستنير بالنصوص الصريحة والعقول السليمة.

ويمكن تصنيف المصادر والمراجع التي يتوكأ عليها البحث حسب أهميتها بالنسبة إلى الموضوع على النحو التالي؛

- القرآن الكريم الذي يعتمد عليه الموضوع بالدرجة الأولى، ويحاول الصدور عن توجيهاته السامية في هذا الميدان المهم؛ باعتباره المصباح الذي ينير لنا دروب الحياة، ويبدد كل ظلام قد يعترض سبيلنا في فجاجها المتشعبة، فهو أهم وسيلة لتجنب السقوط في مزالق المهالك الخطيرة؛ "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا" (الإسراء:٩).

- بعض كتب التفسير التي تبين مرامي الآيات القرآنية، وتحدد بعض معلمها المتعددة، وتترسم أجزاء من أبعادها الشرعية، وتعين على خوض بعض لججها العميقة؛ أملا في اصطياد بعض لآلئها العميقة.

ـ كتب من صحيح السنة التي تحوي نصوصا تبين بعض ما أجمله القرآن، أو تخصص بعض ما عممه، أو تقيد شيئا مما أطلقه؛ ولا نعتمد منها إلا على ما صح سنده إلى النبي ـ ﷺ ـ وقليلا ما نتجاوز الصحيحين إلى غيرهما لما لهما من مكانة في هرم الحديث الصحيح.

إضافة إلى نتف من كتب عامة يستعان بها في بعض الجزئيات المتعلقة بالموضوع؛ لإيضاح جزء من حقيقة خطورة الآراء والفئات التي احتكمت إلى منطق القوة في صراعها مع غيرها، وستتم الاستعانة ببعض المعاجم اللغوية التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد المفاهيم المعجمية للموضوع، والتعرف على بعض الألفاظ الواردة في النصوص...

مدخل:

كان التعايش السلمي من أبرز سمات المجتمع المدني في ظل الإسلام؛ منذ بزوغ فجره الأول في زمن النبوة والخلافة الراشدة، وفي العصور الزاهية للحضارة الإسلامية؛ فكان يقع بعيدا عن التعصب، متسما بالروح الحضارية الإسلامية العالية، وتسامحها الإيجابي، و منسجما مع طبيعة الرحمة التي بعث بها خاتم الرسل ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، في ظل تعاليم القرآن الكريم، قال تعالى مخاطبا حبيبه، وخاتم رسله إلى أهل الأرض كافة إلى قيام الساعة؛ بأسلوب يدل على الحصر: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء: ١٠٧).

وأما السنة فمليئة بالأحاديث التي تدل على قمة التسامح مع المخالفين؛ منها ما ورد في عيادة مرضاهم، وحسن جوارهم، وتوظيفهم؛ فعَن أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ـ قَالَ: كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ ـ وَهُوَ عِنْدَهُ ـ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ـ ﷺ ـ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[1]، فهذا الحديث يدل على أن هذا الغلام كان موظفا في بيت النبوة ـ رغم كونه كان يهوديا ـ كما أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يستنكف عن عيادته في مرضه ...

ومن ذلك اعتبار جنائزهم، والأمر بالقيام لها، ولو كانوا غير مسلمين؛ فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَرَّ بِنَا جَنَازَةٌ، فَقَامَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَقُمْنَا بِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الجِنَازَةَ، فَقُومُوا»[2].

وقد بينت رواية أخرى رواها البخاري تعليل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للقيام للجنازة هنا بكونها تنتمي إلى جنس النفس الانسانية؛ مما يدل على أن احترام الميت يعم المسلم وغيره، ورد ذلك عن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن أَبِي لَيْلَى، أنه قَالَ: "كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ،

---

١ ـ أخرجه البخاري في صحيحه؛ في باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ، رقم: ١٣٥٦، ٩٤/٢.

٢ ـ أخرجه البخاري في صحيحه؛ في باب من قام لجنازة يهودي، رقم: ١٣١١، ٨٥/٢.

فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالاَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[1].

وقد استمر هذا النهج السمح الحامل للقيم البشرية الحضارية التي تعامل كل الطوائف على أساس الاحترام؛ استمر يطبع تعامل شريعة الإسلام الخالدة مع كل شعوب الأرض أينما أقامت أو ظعنت.

مما جعل بعض أصحاب الشرائع الأخرى يفضلون العيش في ظل الإسلام، والاحتكام إلى عدالته في نزاعاتهم على العيش تحت سلطة بني جلدتهم ، والاحتكام إلى قوانينهم الجائرة، في ظل تعاليم شرائعهم المحرفة، أو في كنف بعض أصحاب المذاهب الدينية الأخرى التي كانت تهين الأقليات، وتسخرهم لخدمة السادة والكبراء؛ وقد قص علينا القرآن نماذج من بطش بعض الساسة بمن يخالفونهم في الاعتقاد؛ مثل قوله تعالى: " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ" (البقرة: ٤٩)، ومثل قوله جل وعلا: " قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (البروج: ٤ ـ ٨)

ومن قرأ كتب التاريخ وجد فيها أمثلة لا تحصى لاختيار غير المسلمين العيش في ظل الإسلام على الحياة تحت حكم غيره، والأندلس خير شاهد على عدالة الحكم الإسلامي، وشعور مختلف الطوائف بالأمن والحياة السعيدة مقارنة بحكم النصارى الذي كان يقوم بأبشع أنواع الظلم ضد الأقليات التي عاشت في ظل حكمهم[2]، وذلك لأن الإسلام يحث على احترام كل الناس، وينص على وجوب

---

١ ـ م س ن: رقم: ١٣١٢، ٨٥/٢.

٢ ـ يراجع ـ على سبيل المثال ـ موضوع محاكم التفتيش التي أقامها النصارى بعد زوال الحكم الإسلامي عن الأندلس، وما حدث فيها من فظائع و قتل للمسلمين واليهود، وسلب لممتلكاتهم، وتهجير لهم عن ديارهم، في كتاب: انبعاث الإسلام في الأندلس/ علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ص: ٦٥ وما بعدها.

العدل بينهم في الحكم، ويعاملهم بالمساواة في الحقوق والواجبات؛ وينظر إليهم نظرة احترام؛ في ضوء التكريم الإلهي الشامل لجميع البشر: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء:٧٠) .

وهذه النظرة الحضارية المتسمة بالرفق والعدالة، المبنية على أسس علمية وعقلية؛ مستنيرة بنور نصوص القرآن الكريم عامة، وبما ورد من إشارات تخص التعايش السلمي بين مختلف الشعوب على اختلاف مذاهبهم ونحلهم في سورة آل عمران خاصة، هذه النظرة هي ما سيحاول الباحث هنا تدوين نقاط بارزة منها في المباحث التالية:

المبحث الأول
التعايش السلمي ودلالاته القرآنية

يتنزل هذا المفهوم في سياق المعاني التي تروم التعبير عن أساليب الحياة المشتركة بين البشر وما تتطلبه من تعاون، على أساس المصالح العامة بين مختلف أصنافهم، وتم تقييده بالسلمية ابتغاء حصر تناول الموضوع في زاوية الوسائل التي لا عنف فيها، ولا تصادم، وإنما تقوم على الرفق والتفاهم، عبر الحوار والبحث عن الأمور التي تجمع ولا تفرق؛ ويتطلب تحديد الموضوع ـ حسب مقتضيات الإجرائية ـ الولوج إليه من خلال المحددات التالية:

المطلب الأول: الدلالات المعجمية للتعايش السلمي:

أ ـ التعايش: إن الثلاثي المجرد منه: هو: "عاش" الذي يحيل إلى معان تنتمي إلى حقول دلالية متقاربة؛ ترتبط بالأرض، وما يدور فوقها من نشاط، يتقاسم البشر المنافع فيه؛ يقول صاحب القاموس في معانيه: "الحَيَاةُ، وعاشَ يَعيشُ عَيْشاً ومَعاشاً ومَعِيشاً ومَعيشَةً وعِيشَةً، بالكسر ... والمَعِيشَةُ التي تَعِيشُ بها من المَطْعَمِ والمَشْرَبِ، وما تكونُ به الحياةُ، وما يُعاشُ به أو فيه "[1].

وكل هذه المعاني تدل على المجال الذي تتعلق به هذه المكلمة، وهو الاشتراك في أمور الحياة، وما فيها من أنشطة تتعلق بأساليب العيش، وما يدور على أديم الأرض من أحداث تمس مصالح الناس العامة، كما أن صيغتها تدل على التفاعل؛ الذي يعبر عن عدة معان تخدم موضوعنا؛ مثل التناصح، والتشاور، والتعاون، وهي من المعاني القريبة إلى المساكنة والمعاشرة؛ قال ابن منظور: "وعايَشَه: عاشَ مَعه كَقَوْلِهِ عاشَره؛ قَالَ قَعْنب بْنُ أُمّ صَاحِبٍ:

---

١ ـ القاموس المحيط للفيروز أبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ص: ٥٩٩.

وَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى أَنِّي أُعايِشُهُمْ، ... لَا نَبْرَحُ الدهرَ إلا بَيْنَنا إِحَنُ ...)[1].

ومن معانيها كذلك مكابدة الحياة وتقلباتها، وما فيها من أتراح؛ قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم[2].

ولذلك يمكن القول إن جل معاني "عاش" في اللغة العربية تدور حول الحياة وما يتخللها من أفراح وأتراح، وما يدور بين أهلها من معاملات؛ وما يتطلبه ذلك من جهود الإصلاح والتعاون على ما ينفع الناس في معايشهم و تسيير أمورهم العامة والخاصة.

ب ـ السِّلْمي: نسبة إلى السِّلم؛ ومن المعاني التي يشي بها هذا اللفظ النجاة من المخاطر، وعدم العنف، ومنه السلام الذي هو اسم من أسماء الله الحسنى، وقد اختاره الله من صيغه علما على دينه " إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ "(آل عمران:١٩).

وقد جعل الله لفظ السلام شعارا للتحية عند الدخول أو الخروج، أو اللقاء ....

---

١ ـ لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ ، ٣٢١/٦، والبيت من قصيدة من بحر البسيط، أولها:

ما بال قوم صديقاً ثم ليس لهم ... عهد وليس لهم دين إذا أئتمنوا، ينظر: الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: الدكتور إبراهيم الكيلاني، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان، دار الفكر - دمشق – سورية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م، ص: ٢٢٠، وكلمة (إحن) الواردة في البيت من "أَحِنَ الرَّجُلُ يَأْحَنُ مِنْ بَابِ تَعِبَ حَقَدَ وَأَضْمَرَ الْعَدَاوَةَ، وَالْإِحْنَةُ اسْمٌ مِنْهُ وَالْجَمْعُ إحَنٌ مِثْلُ سِدْرَةٍ وَسِدَرٍ، المصباح المنير؛ لأحمد أبي العباس الحموي، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ٦/١ .

٢ ـ البيت من البسيط، وهو بلا نسبة في شراح الألفية، ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك/ لابن هشام، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د ، ت)، ٢٣٩/١، وشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، لمحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد

الناشر : دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ٢٧٤/١.

ومنه "السِّلْم (بالكَسْر: المُسالِم) ، وَبِه فُسّر قَولُه تَعالَى: {ورجلا سلما لرجل}[1] أَي: مُسالِما على قِراءة مَنْ قَرَأَ بالكَسْر؛ وَتقول: أَنا سِلْم لِمَنْ سَالَمَنِي، والسِّلْمُ: (الصُّلْح ويُفْتَح) لُغَتان[2]، وبالفتح سَلما وهي قراءة الجمهور، أي: خالصا"[3]، ومن مشتقاته السالم: ويطلق على المعافي من كل الأسقام، ويوصف به القلب؛ قال طرفة بن العبد(في بحر الطويل):

خَليليّ! لا واللَّهِ ما القَلبُ سالمٌ[4] ... وإنْ ظَهَرَتْ مِنّي شَمائِلُ صاحِ

والاَّ، فما بالي، ولم أشهَد الوغى .... أبِيتُ كأنّي مُثقَلٌ بِجِرَاحِ [5].

وبذلك يجتمع في معنى الكلمة من الناحية اللغوية البعد عن الشحناء وما إليها من مظاهر العنف المادي، مع مجانبة البغضاء وما إليها من الأمراض المعنوية.

المطلب الثاني: دلالات التعايش السلمي في القرآن الكريم؛

١ـ قضايا قرآنية تعزز التعايش: هناك قضايا كبرى أكد عليها هذا النظم العزيز؛ والمتأمل فيها يدرك أن لها دلالات تستدعي التوقف عندها؛ فكل مظهر منها يعطي صورة عن طبيعة هذا الكون المسخر للبشر ذي الطينة الواحدة، والمهاد المشترك، والسقف الواحد، والمصير المشترك؛ كل ذلك يبين الأسس القوية للعيش المشترك؛ ويمكن الإشارة إلى أهم تلك القضايا في النقاط التالية:

أ ـ **وحدة الخالق والأصل والموطن: فالأصل(آدم وحواء)، والخالق(الله)؛** قال تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

---

١ ـ هذا جزء من الآية: ٢٩ من سورة الزمر، وهي قوله تعالى: ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)).

٢ ـ تاج العروس: ٣٧١/٣٢

٣ ـ ينظر: فتح القدير للشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ: ٥٢٩/٤.

٤ـ القلب السالم: المعافى من كل هم وداء.

٥ ـ المحقق: مهدي محمد ناصر الدين، لناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ص: ١٥.

لتعارفوا) (الحجرات: ١٣)، **والموطن:**(الأرض)، "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى" (طه: ٥٥)"، وقد صرحت السورة بانفراد الله بالتصوير والخلق في عالم الأرحام؛ قال تعالى: " هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران:٦).

بـ ـ وحدة الدين الذي فطر الله الناس عليه:

فقد بينت سورة آل عمران أن الإسلام هو الدين الواحد، وأن الاختلاف طارئ؛ فقد قال تعالى: "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (آل عمران: ١٩).

يقول ابن القيم: " فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِثْبَاتَ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَالرَّدَّ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الطَّوَائِفِ، وَالشَّهَادَةَ بِبُطْلَانِ أَقْوَالِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَبَيَّنُ بَعْدَ فَهْمِ الْآيَةِ بِبَيَانِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ"[1]

وقد بين القرآن الكريم في أكثر موضع وحدة الدين الموافق للفطرة، وخطورة التفرق فيه؛ فقال جل من قائل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (الروم: ٣٠، ٣١، ٣٢).

ففي هذه الآية خاطب القرآن البشر بلفظ جامع (الناس) د لالة على أن الأمر ليس خاصا بفئة معينة، وجعل الدين الإسلامي هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ووصف المبتعدين عنه بالتشيع والتفرق دلالة على أنه عامل وحدة واجتماع وقوة لكل الناس.

وقال تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" (الزمر: ٤١).

---

١ ـ مدارج السالكين المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م، ٤١٨/٣.

جـ وحدة المصير المشترك: ؛ فالكل راجع إلى الله في صعيد واحد؛ قال تعالى: "رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ" (آل عمران:٩)

د ـ وحدة الحق ولزوم اتباعه، مهما كان مصدره؛ فالحق أحق أن يتبع، وهو أساس كل تعايش؛ قال تعالى: "وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة:٤٢)، وقد بين الشعراوي أهمية التعبير الوارد في الآية، ودلالته على ثبات الحق، وخطورة إخفائه، وحرص القرآن على اتباعه مهما كان مصدره؛ وذلك حيث قال: "{وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل} مادة تلبس. مأخوذة من اللباس الذي نرتديه. واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفي الحق ولا نظهره. فاللباس تغليف للجسم يستره فلا يبين تفصيلاته، والحق هو القضية الثابتة المقدرة التي لا تتغير، فلنفرض أننا شهدنا شيئا يقع. ثم روى كل منا ما حدث. إذا كنا صادقين لن يكون حديثنا إلا مطابقا للحقيقة، ولكن إذا كان هناك من يحاول تغيير الحقيقة فيكون لكل منا رواية، وهكذا فالحق ثابت ولا يتغير"[1]. .

وقد خاطب الله نبيه بخطاب بمجد الحق بإضافته إلى الله: "الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ" (آل عمران: ٦٠).

هـ ـ التنوع التكاملي بين الكائنات؛ لقد أوضح القرآن الكريم تنوع الكائنات، وتعدد أصنافها:

فقد ذكر تنوع الثمار التي هي قوام حياة المخلوقات، وأنه مدعاة للتفكر في ملكوت الله؛ فقال ـ جل من قائل: "وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الرعد: ٣).

ولا تخفى دلالة الآية على التنوع في هذه الثمار شكلا ومضمونا؛ قال الشوكاني: "أَيْ جَعَلَ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ثَمَرَاتِ الدُّنْيَا صِنْفَيْنِ، إِمَّا فِي اللَّوْنِيَّةِ؛

---

١ ـ تفسير الشعراوي – الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧، ٢٩٩/١.

كَالْبَيَاضِ والسواد ونحوهما، أو في الطّعمية؛ كالحلو والحامض وَنَحْوِهِمَا، أَوْ فِي الْقَدْرِ كَالصِّغَرِ وَالْكِبْرِ، أَوْ فِي الْكَيْفِيَّةِ كَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ"[1].

كما بين ـ جل وعلا ـ تنوع سائر المخلوقات؛ بما فيها الجبال بألوانها الزاهية، والأنعام وأصنافها المتنوعة، والبشر وكثرة مشاربهم؛ إذ إنها جميعا تظهر جوانب من جمال هذا الكون، وبديع صنع الله فيه؛ قال اللطيف الخبير: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ" (فاطر:٢٧، ٢٨).

وقد أوضح الشنقيطي علاقة هذا التنوع بالدلالة على قدرة الصانع، وبالرد على من يظن أنه من فعل الطبيعة؛ وذلك حيث قال: " وَاخْتِلَافُ الْأَلْوَانِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ غَرَائِبِ صُنْعِهِ تَعَالَى وَعَجَائِبِهِ، وَمِنَ الْبَرَاهِينَ الْقَاطِعَةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُؤَثِّرُ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنَّ إِسْنَادَ التَّأْثِيرِ لِلطَّبِيعَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ"[2].

فالكون ذو ألوان متعددة، لكنها بمثابة تلون اللوحة الفنية الذي يعطيها جمالا رائعا، ويكسبها جاذبية قوية، وينبغي أن يكون عامل تكامل، لا عامل تشتت؛ وهو باعث على أن يخضع كل شيء لإرادة الخالق التي ينسجم معها أي طرح علمي قوامه الصدق؛ وحين يتعارض معها شيء فمعناه أنه بني على باطل، ولذلك سيكون متعارضا مع حقائق هذا الكون التي فطر الله الناس عليها.

و ـ توزيع الوظائف حسب القدرات البشرية: فقد قسم الله خيرات الأرض بين البشر دون تمييز بينهم على أساس دينهم أو أصلهم؛ قال تعالى: "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ" (الزخرف٣٢).

---

١ ـ فتح القدير: ٧٨/٣.

٢ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين، الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ ١٧٣/٦.

وقد بين الإمام الشوكاني أهمية هذا التوزيع في تعدد الوظائف بين البشر؛ بحسب استعداداتهم الذهنية والبدنية، وتقاسم الأدوار بينهم على أساس من الحكمة التي لا يعلم كنهها إلا بارئ السموات والأرض، وما يترتب على ذلك التنوع من تحقيق كثير من المصالح التي بنيت المقاصد الشرعية على أساسها؛ فقال : " ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَ بَيْنَهُمْ مَا يَعِيشُونَ بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا؛ فَقَالَ: نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، وَلَمْ نُفَوِّضْ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِي شَيْءٍ، بَلِ الْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، ... ومعنى "رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ" أَنَّهُ فَاضَلَ بَيْنَهُمْ فَجَعَلَ بَعْضَهُمْ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا بِالرِّزْقِ، وَالرِّيَاسَةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْحُرِّيَّةِ، وَالْعَقْلِ، وَالْعِلْمِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْعِلَّةَ لِرَفْعِ دَرَجَاتِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: "لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا أَيْ: لِيَسْتَخْدِمَ بعضهم بعضا فيستخدم الغنيّ الفقير، والرئيس المرؤوس، وَالْقَوِيُّ الضَّعِيفَ، ... وَالْعَاقِلُ مَنْ هُوَ دونه في الْعَقْلِ، وَالْعَالِمُ الْجَاهِلَ، وَهَذَا فِي غَالِبِ أَحْوَالِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَبِهِ تَتِمُّ مَصَالِحُهُمْ، وَيَنْتَظِمُ مَعَاشُهُمْ، وَيَصِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَطْلُوبِهِ، فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ يُحْسِنُهَا قَوْمٌ دُونَ آخَرِينَ، فَجُعِلَ الْبَعْضُ مُحْتَاجًا إِلَى الْبَعْضِ لِتَحْصُلَ الْمُوَاسَاةُ بَيْنَهُمْ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا، وَيَحْتَاجُ هَذَا إِلَى هذا، ويصنع هذا لهذا، ويعطي هذا هذا..."[1].

وبناء على تعدد القدرات، وتفاوت أصحابها في الإنتاج فأن الإسلام أتاح الفرص للتنافس الإيجابي بين البشر؛ بعيدا عن الأخطاء التي وقع فيها كثير من أصحاب النظريات الاقتصادية المعاصرة؛ "فالإسلام ... يحث ويدعو إلى الثروة والغنى، ولكن بشرط ألا يكون المال متداولا بين فئة قليلة من الناس أو قاصرا على دولة معينة، وبعبارة أخرى ألا يكون هناك تفاوت شديد في توزيع الثروات تستأثر من خلاله فئة معينة من الأفراد أو دولة معينة بالخير كله؛ بل أن يعم الخير الجميع؛ بأن يكون التفاوت منضبطا أو متوازنا، بحيث لا يكون هناك ثراء فاحش وبجواره فقر مدقع ...

١ ـ فتح القدير: ٦٣٤/٤.

ومن هنا يختلف الاقتصاد الإسلامي عن الاقتصاديات الوضعية السائدة، فهو لا يقر التفاوت الشديد أو تسلط أقلية على مقدرات الجماعة؛ كما هو شأن المذهب الفردي والنظم المتفرعة عنه كالرأسمالية، كما لا يقر إذابة أو إزالة الفوارق وإقامة المساواة الفعلية أو المطلقة؛ كما هو شأن المذهب الجماعي والنظم المتفرعة عنه؛ كالاشتراكية والشيوعية، وإنما هو يحترم التباين والتفاوت تبعا لاختلاف المواهب والقدرات، مع تقريب الفوارق أو الفجوة بين أفراد المجتمع أو دول العالم، بما يحقق لها التعاون والتكامل لا السيطرة والاستغلال"[١].

ز ـ التسوية في الحقوق العامة بين البشر: فلم يفرق القرآن الكريم في الإحسان إلى المحتاجين مثلا بين المسلمين وغيرهم؛ خاصة في الحالات الإنسانية الملحة؛ كالأسير واليتيم والمسكين ...، فالله أثنى على من يعطي هؤلاء المذكورين في الآية واشباههم ممن يحتاجون المساعدة الأسبقية في الإطعام إيثارا على النفس ـ دون تمييز ـ فالله تعالى يقول: " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا" (الإنسان: ٨).

وجاءت الإشادة القرآنية بهذا العمل الخيري مصحوبة بما يدل على قمة التغلب على شهوات النفس، والحرص على منفعة الغير في أصعب الظروف، قال الإمام الشوكاني: "وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً أَيْ: يُطْعِمُونَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ الْأَصْنَافِ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ لَدَيْهِمْ وَقِلَّتِهِ عِنْدَهُمْ"[٢].

وقد ركزت الآية على جانب التغذية لما له من أهمية في قوام حياة البشر، وما يعطيه من نتائج ذات آثار نفسية بالغة في المستفيدين منه؛ خاصة إذا كان الباذل أحوج إليه؛ قال ابن عاشور: "خُصِّصَ الْإِطْعَامُ بِالذِّكْرِ لِمَا فِي إِطْعَامِ الْمُحْتَاجِ مِنْ إِيثَارِهِ عَلَى النَّفْسِ؛ كَمَا أَفَادَ قَوْلُهُ عَلى حُبِّهِ"[٣].

---

١ ـ كتاب: الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول، محمد شوقى الفنجرى ، وزارة الأوقاف، ص: ١٣٢

٢ ـ فتح القدير: ٤١٩/٥.

٣ ـ التحرير والتنوير: ٣٨٤/٢٩،

مما يدل على أن القرآن الكريم وضع أسس العمل الخيري ـ وهو من أهم ركائز التعايش السلمي ـ وجعله في متناول الجميع؛ فالقيام به لا يحتاج إلى وسائل كبيرة، بقدر ما يحتاج إلى بذل الموجود؛ وإن كان يلمح إلى الارتقاء إلى أعلى قممه بالوصول بالباذل إلى أن يوثر المحتاجين على نفسه، وهو ما لا تدعيه أكثر الهيئات إسهاما في المجال الخيري؛ كما أنه لا يميز بين المستفيدين على أساس لون أو دين أو عرق؛ خاصة إذا عرفنا أن السورة هنا مكية.

فهذه المعايير القرآنية المجردة من الأوصاف الخاصة، أو التمييز في المعاملة يمكن اعتبارها عوامل نجاح للتعاون والتكاتف، وأساسا لبناء العلاقات البشرية على أسس سلمية قوية تتحدى كل الصعاب، وتبتعد عن كل أشكال التمييز في المعاملة الإنسانية.

٢ ـ أهمية السّلم في القرآن الكريم: أما السّلم فقد حظي بحظ وافر من الحضور في الخطاب القرآني؛ فجاء في أسليب عديدة من أهمها:

أ ـ الأمر بالدخول فيه جماعيا ؛ فقد أمر الله المؤمنين بالدخول في السلم كافة؛ فقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" (البقرة: ٢٠٨).

حملت الآية معني العموم من خلال حضور صيغه المسبوقة بالأمر فيها؛ وعبارة {كَافَّةً} حال من الضمير في "ادخلوا" أو من السِّلم أو منهما معاً؛ كما في قولِهِ:

خرجتُ بها تمشي تجرُّ وراءَنا ... على أَثَرَيْنا ذيلَ مِرْطٍ مُرَجَّل[١] ... وهي في الأصل اسمُ لجماعة تكفُّ مُخالِفَها ثم استعملت في معنى جميعاً"[٢].

---

١ ـ هذا بيت من بحر "الطويل"، من معلقة امرئ القيس المشهورة، والتي مطلعها: قِفا نبكِ، من ذِكرى حبيبٍ، ومنزلِ ... بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخولِ، فَحَوْمَلِ، ينظر: ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ص: ٣٨.

٢ ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)/ لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ٢١٢/١.

فلا تخفى إذن علاقة الآية بعموم الخطاب للبشر، وكون الإسلام هو الوسيلة الأوحد لاتحادهم بعد الفرقة والاختلاف التي صاروا إليها بعد أن كانوا أمة واحدة؛ ولذلك كانت مصلحة الجميع في الدخول فيه؛ وهو المعبر عنه بالسلم هنا؛ " وَحَصَلَ مِنْ عُمُومِ ذَلِكَ تَعْلِيمُ الْمُسْلِمِينَ تَارِيخَ أَطْوَارِ الدِّينِ بَيْنَ عُصُورِ الْبَشَرِ بِكَلِمَاتٍ جَامِعَةٍ خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ: "فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ" فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ كَوْنِهِمْ أُمَّةً وَاحِدَةً الْوَحْدَةَ فِي الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَهُوَ الْمُخْتَارُ ... فَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ أَنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فَبَعَثَ لَهُمْ أَنْبِيَاءَ مُتَفَرِّقِينَ لِقَصْدِ تَهْيِئَةِ النَّاسِ لِلدُّخُولِ فِي دِينٍ وَاحِدٍ عَامٍّ، فَالْمُنَاسَبَةُ حَاصِلَةٌ مَعَ جُمْلَةِ "ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً" بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا خِطَابٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ أَيِ ادْخُلُوا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ[1].

بـ ـ تجنب قتال من التزم السلم؛ قال تعالى: " فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (النساء:٩٠).

قال الشوكاني: "وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ أَيِ: اسْتَسْلَمُوا لَكُمْ وَانْقَادُوا فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا أَيْ: طَرِيقًا، فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلُهُمْ، وَلَا أَسْرُهُمْ، وَلَا نَهْبُ أَمْوَالِهِمْ، فَهَذَا الِاسْتِسْلَامُ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ وَيُحَرِّمُهُ"[2].

وقد فسر كثير من أهل العلم السلم هنا بـ "الصُّلْح وَالْمُهَادَنَة" ... وذلك لا ينافي المعنى السابق" لِأَنَّ الْمُصَالِحَ مُنْقَادٌ مُذْعِنٌ لِمَا وَافَقَ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ السُّوءِ"[3].

وقريب من ذلك أمره تعالى المسلمين بالجنوح إلى السلم عند جنوح عدوهم إليه؛ قال تعالى: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"(الأنفال: ٦١).

وسياق هذه الآية يدل أن الجنوح للسلم مطلوب مهما كانت المخاطر المتوقعة؛ قال الإمام الشوكاني: "وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِي جُنُوحِكَ لِلسَّلْمِ، وَلَا تَخَفْ مِنْ مَكْرِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ السَّمِيعُ لِمَا يَقُولُونَ، الْعَلِيمُ بِمَا يَفْعَلُونَ، وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ

١ ـ التحرير والتنوير، ٢٩٩/٢.
٢ ـ فتح القدير: ٥٧٣/١.
٣ ـ أضواء البيان: ٣٦٧/٢.

يَخْدَعُوكَ بِالصُّلْحِ، وَهُمْ مُضْمِرُونَ الْغَدْرَ وَالْخَدْعَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ، أَيْ: كَافِيَكَ مَا تَخَافُهُ مِنْ شُرُورِهِمْ بِالنَّكْثِ وَالْغَدْرِ"[1].

جـ - الانقياد التام يوم القيامة: "وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذِ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (النحل:٨٧).

وهذه المعاني تدل على أن السلم يستعمل كثيرا بمعنى الصلح، وترك السوء، والابتعاد عن اللجوء إلى القوة قدر الإمكان.

وكثرة وروده بصيغ متعددة في القرآن الكريم يدل على أن الإسلام أعطاه عناية خاصة؛ وأن مقاصد الشرع تصب في ترك العنف، ومنع ما يؤدي إليه من فساد، و تشجع على كل ما يؤدي إلى الدخول في الصلح والتعاهد على ترك كل سوء، والتفاهم على ما يحقق مصالح الأمة، سواء أوقع بعد صراع، أم كان منشؤه تفاهم أصلي.

١ - فتح القدير: ٣٦٨/٢.

المبحث الثاني
من أسس التعايش السلمي في القرآن الكريم

أرشد القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى وسائل يؤدي اتباعها إلى الوقاية من العنف، وتجنب أسبابه، ووضع أسسا لتقوية أسباب تأمين العيش الكريم في أمان وسلام لجميع الناس.

ومن المعروف أن الوقاية خير من العلاج، وأن الأساس إذا كان قويا أمكن البناء عليه بأمان؛ ومن أهم الوسائل الوقائية للتعايش السلمي، والتي يمكن اعتبارها أسسا لبناء صرحه الشامخ في منأى عن السقوط ما يلي:

المطلب الأول: الاستماع إلى الحق دون عوائق:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ" (آل عمران: ٦٤)، وإلى الاحتكام إلى البرهان (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (البقرة:١١١)، (والنمل:٦٤).

فالقرآن يصدع بدعوة الناس إلى الجلوس إلى مائدة الوحي المنزل من السماء؛ المحمل بوابل سحب الهداية التي تخرج ثمار صحاح النقول، وتزهر بها أزهار سليم العقول، وإلى الاستماع إلى الحقيقة دون عوائق عقدية أو مواقف مسبقة؛ لذلك نرى حضور الفعل "تعالوا" الدال على الخطاب الجماعي يرد مرارا مصحوبا بالتحذير من العوائق التي تجافي الموضوعية، وتهمل دور العقل في فهم الحقائق، وفيه معنى العلو تشريفا لمقام الحق، وإظهارا لمكانته برفع منزلة طالبيه؛ قال ابن عاشور: "وتَعالَوْا اسْمُ فِعْلٍ لِطَلَبِ الْقُدُومِ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ أَمْرٌ مِنْ تَعَالَى يَتَعَالَى إِذَا قَصَدَ الْعُلُوَّ، فكأنّهم أَرَادوا بِهِ فِي الْأَصْلِ أَمْرًا بِالصُّعُودِ إِلَى مَكَانٍ عَالٍ تَشْرِيفًا لِلْمَدْعُوِّ، ثُمَّ شَاعَ"[1].

وقد ورود هذا الفعل في سياقات متعددة في القرآن الكريم؛ إذ جاء مصحوبا بما يدل على قوة الحجة، وتأسيسها على البراهين المنطقية، وضعف المعارضين، واعتمادهم على حجج واهية، وتقاليد فاسدة، أو كبر مذموم، من أمثلة ذلك:

---

١ ـ التحرير والتنوير: ٢٦٤/٣.

ـ الخضوع لخالق هذا الكون ومدبره بدون منازع؛ قال تعالى "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (آل عمران: ٦٤).

في الآية دليل على خطورة تجاوز الحدود البشرية في الطرح؛ وذلك بادعاء منزلة الربوبية، أو حضور المصالح الشخصية وتوظيف الخطابات الدينية في تحقيقها.

ـ الاستماع إلى كلام خالق الكون؛ وذم الاعراض عنه "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا" (النسا:٦١)، وهذا يدل على عدم الانسجام في المواقف، وهو الذي يسبب لصاحبه إظهار ما يخالف الحقيقة.

ـ ذم التقليد الموجب للإعراض عن الحق، والمانع من اتباع ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ" (المائدة: ١٠٤). فالتقليد هو الذي أعماهم عن الحق، ومنعهم من الاستماع إلى ما أنزل الله من البينات.

ـ ضرورة التمسك بالميثاق الأخلاقي المشترك بين جميع أجناس البشر؛ قال تعالى: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (الأنعام: ١٥١).

ـ خطورة الامتناع عن الرجوع عن السير في طريق الباطل والتمادي في معارضة الحق: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (المنافقون: ٥).

ـ المباهلة بعد الإعراض عن الحجج: وهي تدل على قوة الحجة، والتعويل على النصرة الإلهية التي تتنزل للمحقين؛ وذلك بعد عجز الخصوم عن إدحاض

الحق ـ " فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ " (آل عمران: ٦١).

وهذا المطلب الأخير بمثابة الختام للمناظرة؛ فبعد أن عجز الخصوم عن إثبات مبرراتهم بالوسائل المعرفية طالبهم القرآن الكريم بالاحتكام إلى منطق آخر يفوق طاقتهم البشرية، ويتجاوز مستواهم المادي القريب إلى مستوى عالم الإعجاز الذي لا يمكن أن تقف في وجهه أكاذيبهم وحججهم الباطلة؛ ولذلك لم ينزلوا للتحدي؛ بل خافوا؛ يقول ابن عاشور: " وَهَذِهِ دَعْوَةُ إِنْصَافٍ لَا يَدْعُو لَهَا إِلَّا وَاثِقٌ بِأَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ؛ وَهَذِهِ الْمُبَاهَلَةُ لَمْ تَقَعْ لِأَنَّ نَصَارَى نَجْرَانَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا إِلَيْهَا.."[1].

المطلب الثاني: الاحتكام إلى العقل والعلم:

فقد ذم القرآن الكريم الظلم المشبع بالهوى والضلال؛ قال تعالى: "بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ" (العنكبوت: ٢٩).

ودعا إلى إعمال العقل في مواضيع شتى؛ وبين أن إهماله قد يؤدي بصاحبه إلى أن ينزل إلى درجة أغبياء الدواب؛ فقال تعالى: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُون" (الأنفال:٢٢)).

كما عاتب الله أهل الكتاب بسبب مخالفة أفعالهم لأقولهم، وهو أمر قبيح وغير منصف عقلا وشرعا؛ قال تعالى: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (البقرة: ٤٤).

وأنكر عليهم إعراضهم عن الاحتكام إلى كتاب الله ـ رغم ما عندهم من علم بصدق ما فيه؛ فقال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ" (آل عمران:٢٣).

ومن الأمور المجافية للعقل السليم كذلك مغالطات بعض من أوتوا حظا من العلم باحتجاجهم بما يجافي وقائق التسلسل التاريخي؛ جاء ذلك في قوله تعالى "يَا

---

١ ـ التحرير والتنوير: ٢٦٦/٣،

أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (آل عمران: ٦٥).

فالعقل يقتضي أن تكون الحجة منسجمة مع تسلسل الأحداث التاريخية} لكي تكون مقبولة.

كما بين القرآن أن العقل السليم لا يقبل بيع المواقف الشرعية بمتاع الدنيا الزائل؛ قال تعالى: "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (الأعراف: ١٦٩).

وقد يصل الأمر بالبعض إلى أن يكون بمثابة فاقد الحواس الطبيعية؛ وذلك لتعطيله وظيفة العقل بتَصامُمه عن سماع حقائق الوحي؛ قال جل وعلا: "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (يونس: ٤٢)؛ وبذلك يستحق هذا الصنف من الناس العقاب، والصرف عن طريق الحق؛ لإهماله لاستخدام أدوات العقل التي زوده الله بها للتعامل مع النصوص؛ قال تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (يونس: ١٠٠)، (أَيِ: الْعَذَابَ، أَوِ الْكُفْرَ، أَوِ الْخِذْلَانَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْعَذَابِ)[1].

ولهذا أشادت السورة في ختامها بأهمية توظيف العقل في تدبر هذا الكون بما فيه من آيات منظورة مبثوثة في نظام محكم، تعضضها الآيات المسطورة في الذكر الحكيم ؛ فقال تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" (آل عمران:١٩٠ ـ ١٩١)، وقد أمر الحق سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من الذكر الحكيم بالسير في الأرض لإذكاء البصائر بالتأمل في ملكوت الله؛ قال تعالى: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج:٤٦).

---

١ ـ فتح القدير للشوكاني: ٥٣٩/٢.

ولم تكتف السورة بالتأمل في الحاضر فقط بل دعت إلى إعمال العقل في مصير الأمم السابقة لأخذ العبرة من حياتها، وما آل إيها أمرها؛ "قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (آل عمران:١٣٧)، يقول محمد رشيد رضا: " وَقَدْ نَبَّهَتْ آيَةُ آلِ عِمْرَانَ إِلَى أَصْلٍ مِنْ أَعْظَمِ أُصُولِ الْعِلْمِ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ السِّيَاحَةِ وَاخْتِبَارِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ فِي شُئُونِ الْبَشَرِ الْعَامَّةِ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِعِلْمِ الِاجْتِمَاعِ، وَهِيَ: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا) "[1].

المطلب الثالث: الدعوة إلى الصلح والإصلاح والترغيب فيهما.

ومن علامات حرص القرآن الكريم على السلم ودواعيه، وتبنيه للقضاء على النزاعات وحرصه على تجنب أسبابها دعوته الصريحة ـ في مواطن شتى ـ إلى الصلح، وإلى الإصلاح؛ وهما وجهان لعملة واحدة، ومن أهم ركائز التعايش السلمي التي لا غنى عنها؛ ومن أمثلة ذلك في الكتاب العزيز:

أ ـ اعتبار القرآن الصلح خيرا؛ قال تعالى: "وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء: ١٢٨).

فوصف الصلح بالخيرية المطلقة دليل على أهميته للجميع بدون قيد؛ قال ابن عاشور: "وَالتَّعْرِيفُ فِي قَوْلِهِ: وَالصُّلْحُ خَيْرٌ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ وَلَيْسَ تَعْرِيفَ الْعَهْدِ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ إِثْبَاتُ أَنَّ مَاهِيَّةَ الصُّلْحِ خَيْرٌ لِلنَّاسِ، فَهُوَ تَذْيِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالصُّلْحِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ"[2].

بـ ـ تمجيد الأمر بالإصلاح بين الناس والدعوة إليه؛ قال تعالى: "لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا" (النساء: ١١٤).

فالإصلاح المذكور في الآيات شامل لكل المنازعات، في كل المجالات؛ لأنها مصدر كل الشرور بين الأفراد والجماعات، قال السعدي ـ رحمه الله ـ "

١ ـ تفسير المنار، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م، ٢٥٦/٨.
٢ ـ التحرير والتنوير: ٢١٦/٥.

والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان كما قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا}"[1].

جـ ـ حصر دعوة الأنبياء في الإصلاح؛ يظهر ذلك في خطاب شعيب عليه السلام لقومه؛ إذ: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" (هود: ٨٨)، وهنا جاء الإصلاح شاملا لجلب كل خير، ودالا على دفع كل فساد في الدين وفي المعاملات بين الناس؛ قال الشكوكاني ـ رحمه الله: " إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ أَيْ: مَا أُرِيدُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ إِلَّا الْإِصْلَاحَ لَكُمْ وَدَفْعِ الْفَسَادِ فِي دِينِكُمْ وَمُعَامَلَاتِكُمْ "[2]

هـ ـ الأمر به في فض النزاعات الداخلية؛ سواء أكانت جماعية بين أكثر من فئة؛ كما في قوله تعالى: "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ..."، (الحجرات: ٩)، وفي قوله تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات: ١٠).

أو فردية في نطاق ضيق؛ كما في قوله تعالى: " وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا" (النساء٣٥).

وبذلك يكون الصلح والإصلاح من أهم المقاصد الشرعية لجلبهما لكثير من المنافع، ودرئهما لكثير من المفاسد.

---

١ ـ تفسير السعدي، ص: ٢٠٢.

٢ ـ فتح القدير: ٥٨٩/٢

المبحث الثالث
موضوعات سورة آل عمران، وأثرها في ترسيخ التعايش السلمي

إن المتأمل في موضوعات السورة، والمجالات الرئيسة التي تناولتها يدرك أنها رسخت دعائم كبرى للتعايش السلمي بين البشر؛ فإذا استنارت بها البشرية في دروب الحياة المعتمة لزمت الصراط السوي، ووصلت إلى الهداف الأسمى الذي خلقت من أجله، وغاب عن حياتها التشتت والتشرذم والتصارع، وتجنبت الشرور والآفات؛ وشعرت بالسعادة تغمر حياتها من كل اتجاه، وإن تنكبتها تاهت في ظلمات الجهالة، وأصيبت بالعمى؛ فانكبت على وجهها على غير هدى، وأصبحت حياتها من نكد إلى نكد، ومن تشتت إلى آخر.

ويمكن عرض معالم التعايش الآمن من خلال النقاط التي رسمتها السورة على النحو التالي:

المطلب الأول: توحيد الخالق مصلحة لكل البشر:

لا شك أن توحيد خالق هذا الكون يعتبر أهم ركيزة لبناء أي حياة ناجحة على أسس سليمة؛ وتظهر مكانة التوحيد في إرساء قيم التعايش السلمي في كونه يدعو إلى:

أ ـ **وحدة مرجعية الرسالات السماوية:** فقد نادت السورة بخطاب عام؛ بينت فيه أهمية توحيد الخالق؛ انطلاقا من أن "إِصْلَاح الْعَقِيدَةِ يحمل الذِّهْن عَلَى اعْتِقَادٍ لَا يَشُوبُهُ تَرَدُّدٌ وَلَا تَمْوِيهٌ وَلَا أَوْهَامٌ وَلَا خُرَافَاتٌ"[1]، وأكدت على أنه ليس خاصا برسالة دون أخرى ، ولا بمجتمع دون غيره؛ قال تعالى: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}، آل عمران: ٦٤)، وَكَانَ إِصْلَاحُ الِاعْتِقَادِ أَهَمَّ مَا ابْتَدَأَ بِهِ الْإِسْلَامُ، وَأَكْثَرَ مَا تَعَرَّضَ لَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ

١ ـ التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٩٤/٣.

إِصْلَاحَ الْفِكْرَةِ هُوَ مَبْدَأُ كُلِّ إِصْلَاحٍ، وَلِأَنَّهُ لَا يُرْجَى صَلاح لِقَوْمٍ تَلَطَّخَتْ عُقُولُهُمْ بِالْعَقَائِدِ الضَّالَّةِ"[١].

"وهذه الآية الكريمة، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحيانا في الركعة الأولى من سنة الفجر: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ} الآية، ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئا من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية"[٢].

فالآية اشتملت على عناصر لا يختلف عقلاء البشر عليها، وهي أساس لكل بناء فكري صحيح؛ وقد أرست الأسس التالية:

أولا ـ الانطلاق من أرضية مشتركة (كلمة سواء)؛ "أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى {تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} أي: هلمو نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال"[٣]، وهذه الأرضية لها بعدان:

البعد الأول: الارتقاء إلى مستوى توحيد الخالق عز وجل والترفع عن كل نواقص الوثنية؛ قال السعدي: "ثم فسرها بقوله {ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا} فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا جمادا"[٤].

---

١ ـ م س ن: ١٩٤/٣.

٢ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ عبد الرحمن السعدي/ تحقق: اللويحق: الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م. ص: ١٣٣.،

٣ ـ م س ن، ص: ٩٦٨.

٤ ـ م س ن: ص: ١٣٣.

ولذلك جعل القرآن الشرك هو أشد أنواع الذنوب، وبين أن كل ما دونه يمكن أن يغفر، بخلافه: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (النساء: ٤٨).

وقد بينت السورة أن كل الكائنات تخضع لدين الواحد الأحد ـ جل وعلا ـ طوعا أو كرها ـ؛ فقال تعالى: "أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" (آل عمران:٨٣).

كما صرحت بأن الإسلام هو الدين الذي اختاره الله للناس منذ آدم إلى قيام الساعة، وأنه هو دين أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ وليس كما يزعم بعض أهل الكتاب من أنه كان نصرانيا أو يهوديا؛ "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (آل عمران:٦٧)

البعد الثاني: التحرر من عبادة أي مخلوق كائنا من كان: {ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله}، فلا مجال لإشراك غير الله به؛ "بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم؛ كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين"[1].

ولذا فقد عاتب القرآن الكريم أهل الكتاب على تناقضهم الحاصل بين ما يعلمونه نظريا من توحيد الخالق، وبين ما يأتونه عمليا من عبادة غيره؛ قال تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا" (النساء: ٥١)، ويقول عز وجل: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا" (النساء:٦٠).

---

١ تفسير العدي نفسه: ص: ١٣٤

ب ـ خطورة ادعاء الربوبية من دون الله: وقد بينت سورة آل عمران خطورة أن يجعل الإنسان من نفسه ربا يعبد من دون الله، مستغلا مكانته العلمية أو الدينة؛ كما نهت عن اتخاذ المخلوقات ـ مهما كانت منزلتهم ـ أربابا من دون الله ـ عز وجل ـ قال تعالى: "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠).

جـ ـ وجوب الإيمان بكل الرسل دون استثناء: لما أوضحت السورة أن طريق الرسل واحد؛ كان من مقتضيات العقل السليم وجوب الإيمان بجميعهم؛ قال تعالى: "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"(آل عمران: ٨٤).

وقد صرحت بوجوب اتباع ملة أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ؛ فقد جاء فيها قوله تعالى: "قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (آل عمران:٩٥).

المطلب الثاني: القرآن يواطئ كتب هداية البشرية جمعاء:

لقد بينت سورة آل عمران في مطلعها ـ شأنها في ذلك شأن سائر النظم الكريم ـ أن القرآن كتاب هداية، يقفو آثار ما تقدمه من الكتب السماوية؛ فهو مصدق لما قبله منها؛ قال تعالى: "الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ"(آل عمران: ١ ـ ٣)، وقد بين ابن عاشور معنى التصديق لما بين يديه بقوله: " وَمَعْنَى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ أَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِلْكُتُبِ السَّابِقَةِ لَهُ، وَجُعِلَ السَّابِقُ بَيْنَ يَدَيْهِ: لِأَنَّهُ يَجِيءُ قَبْلَهُ، فَكَأَنَّهُ يَمْشِي أَمَامَهُ"[1].

١ ـ التحرير والتنوير: ١٤٨/٣

وقال السعدي مبينا معنى ما أشارت إليه الآيات من وحدة مصدر الكتب السماوية، واشتراكها في الهدف الذي هو الهداية، ومكانة القرآن باعتباره شاهدا على صدقها وحكما فيما اختلف فيه منها: " {مصدقا لما بين يديه} من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى {وأنزل التوراة} أي: على موسى {والإنجيل} على عيسى، {من قبل} إنزال القرآن {هدى للناس} الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلا، {وأنزل الفرقان} أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته "[1].

وقد أنكرت السورة على أهل الكتاب كفرهم بما جاء به القرآن الكريم من الحقائق ـ رغم كونهم على علم بصدق ما فيه ـ فقال تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (آل عمران: ٧٠ ـ ٧١)، "أي: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به، ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات"[2].

فالتساؤل الوارد في الآيات السالفة يحمل أكثر من دلالة على اللوم والعتاب للمخاطبين من أهل الكتاب على إنكارهم لما في كتبهم من حقائق الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما ورد على ألسنة الرسل قبله من صفاته؛ قال الإمام الشوكاني: "وَالْمُرَادُ بِآيَاتِ اللَّهِ: مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ دلائل نبوّة محمد صلّى الله عليه

١ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١٢١/١.
٢ ـ م س ن: ١٣٤/١.

وَسَلَّمَ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ مَا فِي كُتُبِكُمْ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ تَشْهَدُونَ بِمِثْلِهَا مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ تُقِرُّونَ بِنُبُوَّتِهِمْ"[1].

وقد أوضحت السورة هذا المعنى أكثر في بيانها لما أخذ الله به الميثاق على الأنبياء منذ آدم إلى نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يومنوا به؛ فقد قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ" (آل عمران: ٨١).

ففي هذه الآية دلالة واضحة على التواصل بين الرسل، وتبليغ كل منهم أمته حقيقة من سيأتي بعده؛ قال الشعراوي ـ رحمه الله ـ: "لقد يقول قائل: إن هذا القول يصلح عندما يأتي رسول معاصر لرسول؛ مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ونقول: هذا يحدث ـ أيضا ـ وإن لم تتعاصر الرسل، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطي لقومه البلاغ الواضح، وإن لم يتعاصر الرسولان فلا بد أن يعطي الرسول مناعة ضد التعصب، فما داموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسنَ استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه: كونوا في انتظار أن تتدخل السماء في أي وقت، فإذا تدخلت السماء في أي وقت من الأوقات، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تقفوا منه موقف المضارّة، وإياكم أن تقفوا منه موقف العداوة، بل عليكم أن «تنصروه» وهذا قول واضح وجلى ولا لبس فيه"[2].

فالأنبياء يجدد بعضهم مهام من سبقه: فالرسالات تصدر من مشكاة واحدة، وهي عامل وحدة، وقد ورد في السورة قول عيسى ـ وهو آخر من سلم راية الرسالات السماوية إلى نبينا محمد عليهما أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ: "وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ" (آل عمران: ٥٠ ـ ٥١).

---

١ ـ فتح القدير: ٤٠٢/١.

٢ ـ تفسير الشعراوي (الخواطر) ١٥٧٢/٣.

ويظهر بعض أسرار تعدد الكتب السماوية في كونها تبين للناس أحكام التشريع؛ حسب ما يحتاجون إليه من الأمور المتغيرة، وتذكرهم بما نسوه منها، وهذه الأشياء يحدث فيه نسخ وتغيير من كتاب لآخر؛ بخلاف قضايا التوحيد والإخبار عن الغيب والقصص وما يحمله من عبر؛ فهذه الموضوعات لا خلاف فيها، ولا تبديل؛ يقول الشعراوي: إن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من سها عن الكتب السابقة، هذا في المرتبة الأولى، وثانيا: تأتي بأشياء وأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التي تنزل فيها؛ هذه هي فوائد الكتب السماوية التي توالت نزولا من الحق على رسله، إنها تذكر من عقل وتُعَدلّ في بعض الأحكام، ومن الطبيعي أننا جميعا نفهم أن العقائد لا تبديل فيها، وكذلك الأخبار والقصص، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام. ولهذا جاء القول الحق على لسان عبده عيسى ابن مريم: {وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}[1].

١ ـ تفسير الشعراوي(الخواطر) : ١٤٧٩/٣.

المبحث الثاني
محــور المعامــلات

لم تخض السورة كثيرا في تفاصيل جانب المعاملات ـ رغم أنها من طوال السور المدنية، إلا أنها أوردت مسائل ذات قيمة كبرى في أغلب جوانب التشريع؛ وخاصة المعاملات وما يتعلق بها؛ نختار من تلك المسائل:

المطلب الأول: لأمانة:

لقد بين القرآن الكريم خطورة الأمانة، وعظم شأنها في قوله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (الأحزاب:٧٢)، قال القرطبي: "وَالْأَمَانَةُ تَعُمُّ جَمِيعَ وَظَائِفِ الدِّينِ عَلَى الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ"[١].

ولذلك لا يكاد يخلو منها موضوع من الموضوعات الهامة في أي مجال، وهي من أهم مقومات التعايش الصحي.

وبما أنها من أهم أسس سلامة المعاملات؛ خاصة الجوانب المالية منها فقد أثنت السورة على بعض أهل الكتاب، لاتصافهم بأشد درجاتها في معاملاتهم؛ مهما كان المبلغ المؤتمن عليه كثيرا؛ "فالقنطار هنا للمبالغة في القدر الكبير من المال"[٢]، بينما وبّخت جماعة منهم لخيانتهم للأمانة في القليل الحقير؛ قال تعالى: "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران:٧٥)، فقد جعلت الآية الأمانة معيارا للتمييز بين أهل الكتاب؛ باعتبارها تعطي صورة عن مدى الالتزام العلمي بتعاليم الشرائع والتمسك بالعفة من عدمها في جميع أموره، قال ابن عاشور: " وَقَدْ ذَكَرَ

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي): تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م: ٢٥٣/١٤.

٢ ـ تفسير الشعراوي(الخواطر) :١٥٤٤/٣.

الله هُنَا أنّ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ تَعَفُّفًا عَنِ الْخِيَانَةِ وَفَرِيقًا لَا يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ مُتَعَلِّلِينَ لِإِبَاحَةِ الْخِيَانَةِ فِي دِينِهِمْ"[١].

وهي تحتاج إلى رقابة ذاتية وإلى إيمان قوي بوجوب أدائها؛ لأنها في الغالب تتعلق بالمسائل غير الموثقة؛ قال الشعراوي: "إن الأمانة هي شيء يأتمن فيه مؤتمِن على مؤتمَن، ولا حجة لصاحب الشيء المؤتَمَن عليه إلا ذمة المؤتمَن فإن كانت العلاقة بينهما محكومة بإيصال أو عقد أو شهود؛ فهذه ليست أمانة إنما الأمانة هي ما يعطيها إنسان لآخر فيما بينهما، وبعد ذلك فالمؤتمن بعد ذلك إما أن يُقِرّبها وإمّا لا يقِرّبها"[٢].

ولذلك كان الأسلوب القرآني هنا في غاية الدقة؛ إذ جاء التعبير بصيغة تدل على التعجب من عمل الفريقين؛ قال ابن عاشور: " وَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ فِي قَوْلِهِ: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلتَّعْجِيبِ مِنْ مَضْمُونِ صِلَةِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِمَا: فَفِي الْأَوَّلِ لِلتَّعْجِيبِ مِنْ قُوَّةِ الْأَمَانَةِ، مَعَ إِمْكَانِ الْخِيَانَةِ وَوُجُودِ الْعُذْرِ لَهُ فِي عَادَةِ أَهْلِ دِينِهِ، وَفِي الثَّانِي لِلتَّعْجِيبِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْخَوْنُ خُلُقًا لِمُتَّبِعِ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ، ثُمَّ يَزِيدُ التَّعْجِيبُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا فَيُكْسِبُ الْمُسْنَدَ إِلَيْهِمَا زِيَادَةَ عَجَبِ حَالٍ"[٣].

ولذا كانت القناعة عنصرا لا غنى عنه في كل الأمور، والجانب العملي أقوى أثرا من مجرد المعرفة النظرية.

المطلب الثاني: الإنفاق في سبيل الله:

بما أن الإنفاق في أوجه الخير يمثل قمة الارتقاء في سلم التعامل الخيري مع المال؛ لذلك فقد اشترطته السورة في نيل درجة البر؛ قال تعالى: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" (آل عمران:٩٢).

فالبر شامل لكل ما شرعه الله، والإنفاق من أعظم وسائله؛ قال ابن عاشور معلقا على الآية: " وَافْتِتَاحُ الْكَلَامِ بِبَيَانِ بَعْضِ وَسَائِلِ الْبِرِّ إِيذَانٌ بِأَنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ

١ ـ تفسير التحرير والتنوير: ٢٨٥/٣

٢ ـ تفسير الشعراوي: ١٥٤٤/٣،

٣ ـ تفسير التحرير والتنوير: ٢٨٥/٣.

تَدُورُ عَلَى مِحْوَرِ الْبِرِّ، وَأَنَّ الْبِرَّ مَعْنًى نَفْسَانِيٌّ عَظِيمٌ لَا يَخْرِمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا مَا يُفْضِي إِلَى نَقْضِ أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الِاسْتِقَامَةِ النَّفْسَانِيَّةِ. فَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرَانِ: أَوَّلُهُمَا التَّحْرِيضُ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالتَّنْوِيهُ بِأَنَّهُ مِنَ الْبِرِّ، وَثَانِيهِمَا التَّنْوِيهُ بِالْبِرِّ الَّذِي الْإِنْفَاقُ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِهِ"[1].

وقد بين السّعدي أهمية النفقة في أوجه الخير، ودلالة جودتها على شدة محبة الله، وارتباطها بالإحسان إلى مخلوقاته، وترتيب الجزاء العاجل والآجل عليها؛ قائلا: "ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن آثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفقه أعمالا وأخلاقا، لا تحصل بدون هذه الحالة، وأيضا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقه قليلة أو أكثر من طيب أو غيره، فإن الله به عليم، وسيجزي كل منفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل"[2].

ومن هنا ندرك أهمية استخدام المال في أوجه الخير المختلفة؛ والتي أوضحت سورة التوبة أبوابها الكبرى في تحديدها لمصاريف الزكاة: " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة:٦٠)، وتظهر قيمة بذل المال هنا في زرع المحبة بين الناس، وتقريب قلوب بعضهم من بعض؛ ولذلك كان من أهم وسائل الدعوة إلى الله في فجر الإسلام؛ إذ كانت المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة؛ ويظهر ذلك في توزيع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم

١ ـ م س ن: ٤/٥،

٢ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/٩٧٠

ـ للغنائم في غزوة حنين "وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَطَابَ نُفُوسَ الْغُزَاةِ عَنِ الْغَنِيمَةِ ؛ لِيُؤَلِّفَ بِهَا قُلُوبَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ لِأَجْلِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ"[1].

*****

١ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٥٨/٢.

المبحث الثالث
محور الأخلاق وآثاره في زرع قيم المحبة

إذا كان لتوحيد الله تعالى الأثر الأعظم في الانسجام بين البشرية، والسير بها في طريق واحد آمن، دلتها عليه رسل الله منذ آدم إلى خاتمهم محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وكان للإنفاق في أوجه الخير أهميته الكبرى في نيل مرضاة الله، وزرع المحبة بين الناس، وتأليفهم على الحق فإنّ للأخلاق الحسنة مفعولها الكبير في التعايش المثالي بين البشر؛ ولذا دعت السورة إلى التحلي بأخلاق سامية في التعامل مع الناس؛ من أهمها:

المطلب الأول: تنمية الصفات الإيمانية:

إن من أهم ما يتسلح به المرء في معاملته مع الآخرين هو تقويته للإيمان بالله، واتصافه بمقتضيات ذلك؛ كي يحقق السعادة في حياته، والفوز الأكبر بعد مماته؛ ولذا فقد بينت السورة بعض الصفات الموجبة لدخول الجنة، والمسببة لاستمطار مرضاة الله تعالى؛ بعيدا عن حياة الشهوات التي يزينها الشيطان، ويذكيها اللهث وراء زخارف الدنيا وملذاتها؛ وتحصيل تلك الصفات الحميدة تابع لمستوى الإيمان بالله، والتحلي بمقتضيات ذلك من صبر وصدق ... قال تعالى: "قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ" (١٥ ـ ١٧).

فقد امتطوا صهوة الإيمان للوصول إلى مبتغاهم من المغفرة والجنان؛ إذ "توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقيهم شر آثارها وهو عذاب النار، ثم فصل أوصاف التقوى"[1] لهذه الفئة التي اتسمت بالسلوك المحمود المنسجم مع القيم الإيمانية السامية المصلحة للبشرية جمعاء؛ فـ "وصفهم

١ ـ تفسير السعدي: ص: ١٢٤.

بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلبا لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة، وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبيل الخيرات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالاستغفار، خصوصا وقت الأسحار"[١]

وهذه الصفات التي تسمو بالسلوك البشري إلى أرقى مستوياته تحكمها منظومة أخلاقية جاءت معالمها في الذكر الحكيم مبينة في الدعوة إلى الانضباط في الكلام، والحركات، وذم الجهر بالسوء إلا في حالة الدفاع عن النفس في حالة التعرض للاعتداء؛ فقد بين القرآن الكريم أن الله لا يحبه؛ مهما كان مصدره أو سببه، إلا في حق من تعرض للظلم من أي فئة كان؛ قال تعالى: (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (النساء: ١٤٨))، فالآية دلت على ضرورة الابتعاد عن كل أنوع السوء من التصرفات بمنطوقها، وأومأت بمفهومها إلى أهمية التزام الطيب من الأقوال والأفعال؛ يقول السعدي: " يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله. ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين"[٢].

وفي السياق ذاته أثنت السورة على بعض أهل الكتاب لاتصافهم ببعض الصفات الحميدة ، وبينت أن منهم من ارتقى إلى القمة بسببها؛ فوصل إلى درجة الإيمان بالله وباليوم الآخر، وأصبح فاعلا في المجتمع يسعى إلى الإصلاح بين الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل وصل الأمر بهذه الفئة إلى التنافس في الطريق الموصل إلى الله بالمسارعة في الخيرات؛ قال تعالى: "لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

١ ـ تفسير السعدي، ص: ٩٦٣..

٢ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ص: ٢١٢

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ" (آل عمران:١١٣ ـ ١١٥).

ولذلك يعتبر بناء الشخصية على أسس إيمانية قوية سببا في جعل صاحبها فاعلا في مجتمعه، ساعيا في إصلاحه؛ متنافسا مع غيره في أعمال الخير؛ أملا في الحصول على الجزاء الأوفى يوم العرض الأكبر.

المطلب الثاني: الارتقاء إلى صفات المحسنين:

بعد تحصيل صفات الإيمان التي هي أساس لكل بناء أخلاقي سليم، ينبغي للشخص الترقي في مدارج الصفات الحسة للوصول إلى درجة الإحسان الذي هو هرم قمة التعامل مع الخالق والخلق على أساس من الشعور بالرقابة الإلهية دون حاجة إلى متابعة البشر؛ وهذا مهم جدا في التعامل في كل شؤون الحياة ، وصاحبه يحصد ثقة الناس، وينال محبتهم؛ ولذلك أعطت السورة نماذج من هذا النوع من الصفات المثالية التي ترفع المسلم إلى القمة ببلوغه درجة الإحسان؛ الذي يعطيه القدرة على التحمل والصبر على الأذى، والدفع بالتي هي أحسن؛ وهي أمور مطلوبة بإلحاح في مقتضيات التعايش السلمي؛ قال تعالى: "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ": (آل عمران:١٣٤ـ ١٣٥).

فالآيتان بينتا درجة الإحسان "وهو نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق؛ فالأول فسره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1]، وأما الإحسان إلى المخلوقات،

---

١ ـ الحديث أخرجه البخاري في صحيحه؛ في باب سؤال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ... رقم:٥٠، ١٩/١، ونصه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: " الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ =

فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده"[1].

وبما أن الخطأ ملازم للبشر، مهما وصلوا إليه من صفات حسنة؛ إذ الكمال لله وحده، فإن السورة بينت كيفية تعامل المحسنين مع الذنوب الملازمة لبني آدام؛ فبعد ذكر تلك الصفات التي بلغ أصحابها الذروة في محاسن الأخلاق أتبعتها بتعاملهم مع الخطايا التي قد توقعهم فيها الغفلة أو الضعف البشري؛ فـ "ذكر الله عز وجل اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم، فقال: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم} أي: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: {ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون}[2] .

وعند التأمل فيها نجدها أوردت ثلاث ركائز تقوم على:

١ـ البذل في الرخاء والشدة.

٢ـ العفو عن الناس وضبط النفس وعدم الرد على الإساءة بمثلها.

=رَمَضَانَ ". قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: " مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ " ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} [لقمان: ٣٤] الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: «رُدُّوهُ» فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ»، وأخرجه مسلم في باب الإيمان هو وخصاله، رقم: ٩، ٣٩/١.

١ ـ ـ انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، ص: ١٤٨.

٢ ـ م س ص ن :

٣ـ التوبة من الذنوب، والرجوع إلى الله عند الوقوع في أي خطإ بشري.

وهي أمور تجعل صاحبها في مقدمة ذوي الاستحقاق للدرجات العالية من التحكم في النفس، وحملها على التعاون مع الغير، وكبح جماحها، ومقابلة الشر بالخير.

المطلب الثالث: التزام العفو والرفق والمشورة:

القرآن الكريم مليء بما يدل على أن الإسلام دين رحمة ورفق ومشورة؛ وقد جاء وصف مهمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرحمة للعلمين بأسلوب الحصر؛ فقال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء:١٠٧)، وفي هذا السياق ورد ذكر أهمية هذه الصفة في استجابة الناس للدعوة؛ "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران: ١٥٩).

و العفو هنا يشمل التنازل عن الحقوق الشخصية للمصلحة العامة، وأمره ـ صلى الله عليه بالمشورة يدل على مقصدين عظيمين؛ هما: أن تطيب النفوس بأمر المشورة، ويقتدي بها الناس بعده؛ قال الشوكاني: "فَاعْفُ عَنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكَ مِنَ الْحُقُوقِ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِيمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ أَيِ: الَّذِي يَرِدُ عَلَيْكَ، أَيَّ أَمْرٍ كَانَ مِمَّا يُشَاوَرُ فِي مِثْلِهِ، أَوْ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ خَاصَّةً، كَمَا يُفِيدُهُ السِّيَاقُ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَطْيِيبِ خَوَاطِرِهِمْ وَاسْتِجْلَابِ مَوَدَّتِهِمْ، وَلِتَعْرِيفِ الْأُمَّةِ بِمَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ، حَتَّى لَا يَأْنَفَ مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدَكَ"[١].

وهذه الرحمة منة من الخالق عز وجل؛ إذ هو مصدرها؛ يظهر ذلك من خلال ربط السورة بأحداث غزوة أحد التي اتصف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها بالصفات المذكورة في الآية، بمباركة الوحي الإلهي؛ فـ "الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ السَّابِقُ الَّذِي حُكِيَ فِيهِ مُخَالَفَةُ طَوَائِفَ لِأَمْرِ الرَّسُولِ مِنْ مُؤْمِنِينَ وَمُنَافِقِينَ، وَمَا حُكِيَ مِنْ عَفْوِ اللَّهِ عَنْهُمْ فِيمَا صَنَعُوا، وَلِأَنَّ فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ الْمَحْكِيَّةِ

١ ـ فتح القدير: ٤٥١/١.

بِالْآيَاتِ السَّابِقَةِ مَظَاهِرَ كَثِيرَةً مِنْ لين النّبي ـ ﷺ ـ لِلْمُسْلِمِينَ، حَيْثُ اسْتَشَارَهُمْ فِي الْخُرُوجِ، وَحَيْثُ لَمْ يُثَرِّبْهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ مُغَادَرَةِ مَرَاكِزِهِمْ، وَلَمَّا كَانَ عَفْوُ اللَّهِ عَنْهُمْ يُعْرَفُ فِي مُعَامَلَةِ الرَّسُولِ إِيَّاهُمْ، أَلَانَ اللَّهُ لَهُمُ الرَّسُولَ تَحْقِيقًا لِرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ، فَكَانَ الْمَعْنَى: وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ بِرَحْمَتِهِ فَلَانَ لَهُمُ الرَّسُولُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَكْوِينِهِ إِيَّاهُ رَاحِمًا"[1].

فالأخلاق الحميدة تجذب الآخرين وتؤلف بين القلوب، وتنشر المحبة بين الناس، والعكس بالعكس؛ خاصة إذا صدرت من صاحب سلطة؛ قال السعدي: " فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبها من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله"[2].

فزرع قيم المحبة بين البشر أمر مطلوب شرعا وعقلا وعرفا، والتضحية من أجله مهمة، والسعي فيه أجره كبير، والأخلاق الحسنة وقود لا غنى عنه لإذكاء جذوته.

١ ـ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٤٤/٤،

٢ ـ تفسير السعدي، ص: ١٥٤.

المبحث الرابع
سلمية المحاورة والانصاف فيها من خلال السورة

وقد اتسم الحوار في القرآن الكريم بالتنوع والصراحة في عرض الآراء، والحكمة في تناولها، والانصاف في مناقشتها؛ يظهر ذلك من خلال النماذج التالية:

المطلب الأول: أهمية الحوار وحضوره في الأساليب القرآنية:

الحوار ذو أهمية كبرى في القرآن الكريم؛ فقد جاء في مواضيع شتى؛ وتم فيه عرض حجج المخالفين، رغم ما فيها من شطط، وبعد عن الحقيقة في بعض الأحيان؛ فهذا الشيطان يعبر عن رأيه - رغم كبر ذ نبه - فيقول معارضا رب العالمين عند سؤاله عن سبب امتناعه عن الأمر بالسجود لآدم عليه السلام؛ عندما خاطبه الله عز وجل: "قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ"؟ فأجاب الشيطان عليه لعنة الله: "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (الأعراف: ١٢) ".

وتلك اليهود تتفوه بما لا يليق في حق خالق السموات والأرض فيصفونه بأوصاف لا تليق بعبد صالح أحرى برب العزة والجلال، لكن القرآن دوّن أقاويلهم، تعالى الله عما لا يليق منه به علوا كبيرا.

وهاهم اليهود والنصارى ينسبون البنوة إلى الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وسيأتي توضيح ذلك لاحقا بحول الله -.

وذلك الهدهد يعرض مبرراته للغياب عن جند سليمان رغم ضعفه، بعد أن توعده بأشد العقوبات إن لم يأت بمبرر واضح للغياب عن الجيش المكون من طواقم لم يعرف لها التاريخ مثيلا "مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ" (النمل: ١٧)؛ فيقول مخاطبا من سخّر الله له الريح والجن ... "فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (النمل: ٢٢)..".

كل ذلك وغيره كثير دوّنه هذا الذّكر الحكيم، وبقي قرآنا يتلى آناء الليل وأطواف النهار؛ وعامل أهله بأقصى قدر من الانصاف.

وتتجلى أهمية الحوار في كونه يشجع على إبلاغ الحق، ويؤدي إلى انتصار أهله، " بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا

تَصِفُونَ (الأنبياء: ١٨) "، قال الشوكاني: "قِيلَ: أراد بالحق الحجة وبالباطل شبههم"[١].

وفي الآية دلالة على أن الله تكفل بإظهار الحق، وتقوية حجة أصحابه، والقضاء على الباطل، ودحض شبهه؛ قال السعدي في تفسيره لقوله تعالى:" بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ" يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجودل به، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه، فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه {فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} أي: مضمحل، فانٍ، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة، عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو رد حق إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد"[٢].

فالباطل سريع الذوبان أمام صولة الحق؛ وعلى ذلك يدل الأسلوب القرآني هنا، يقول ابن عاشور: ((وَدَلَّ حَرْفُ الْمُفَاجَأَةِ {فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} عَلَى سُرْعَةِ مَحْقِ الْحَقِّ الْبَاطِلَ عِنْدَ وُرُودِهِ؛ لِأَنَّ لِلْحَقِّ صَوْلَةً فَهُوَ سَرِيعُ الْمَفْعُولِ إِذَا وَرَدَ وَوَضُحَ، قَالَ تَعَالَى: "أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ" فِي سُورَةِ الرَّعْدِ [١٧]))[٣] .

وقد عرضت نصوص القرآن الكريم بعض أقوال المخالفين الموغلة في السوء والفحش؛ مثل وصف اليهود لله بالبخل ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ "وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ "، قال ابن عاشور: ((وَهَذَا قَوْلُ الْيَهُودِ الصُّرَحَاءِ غَيْرِ الْمُنَافِقِينَ فَلِذَلِكَ أُسْنِدَ إِلَى اسْمِ (الْيَهُودِ)). كما أورد نسبتهم الابن إلى الله تنزه عن ذلك؛ قال تعالى: ((وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ...)) (التوبة: ٣٠)، وَالتَّقْدِيرُ: وَيَقُولُ الْيَهُود مِنْهُم عَزِيز ابْنُ اللَّهِ، وَيَقُولُ النَّصَارَى مِنْهُمُ: الْمَسِيحُ ابْنُ

١ ـ فتح القدير: ٤٧٤/٣.
٢ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٥٢٠/١.
٣ ـ التحرير والتنوير: ٣٤/١٧،

اللَّهِ، تَشْنِيعًا عَلَى قَائِلِيهِمَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِأَنَّهُمْ بَلَغُوا فِي الْكُفْرِ غَايَتَهُ حَتَّى ساووا الْمُشْرِكين. ولم يتحرج في إيراد بعض حجج الخصوم؛ مهما كان بعدها من الحقيقة، ونقاشها بالبراهين العقلية والنقلية ، مع الانصاف في الحكم على أصحابها)) [1].

ومن هنا تتجلى بعض مزايا الحوار في كونه يتيح للخصم عرض حججه، ونقاشها بحرية؛ حتى يتبين الصواب من عدمه، وفي النهاية يؤدي إلى ظهور الحق، وانتصاره، وبقائه " فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد: ١٧).

المطلب الثاني: إنصاف أهل الكتاب في سورة آل عمران:

وقد اتسم خطاب أهل الكتاب في السورة بالتلطف، وتذكيرهم بتكريمهم بأن الله جعلهم من أهل كتبه التي أنزلها هدى ورحمة للعالمين؛ مما يدل على ذلك تكرير الخطاب بلفظ أهل الكتاب: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (آل عمران: ٩٨- ٩٩).

وإذا كان الحوار يجسد التعايش على الجانب النظري؛ فإن حضور الجوانب العملية في خطاب الآخرين توضح مدى موضوعية القرآن في تميّز المعاملة ومصداقيتها.

وقد اتسمت معاملة أهل الكتاب وغيرهم في السورة بشدة الإنصاف؛ وتم تأسيسها على وحدة الرب، وعلى الإيمان بالرسلات السماوية كلها؛ والوفاء للكل بحقوقه؛ كما تقدمت الإشارة إلى دلك.

وقد شمل اصطفاء الله لأوليائه كافة الأنبياء وأنصارهم؛ ابتداء بآدم الذي هو أصل البشرية، ومرورا بآل إبراهيم، وآل عمران؛ "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (آل عمران: ٣٣ - ٣٤).

---

١ - م س ن: ٢٤٨/٦.

وتتجلى سمة الإنصاف في معاملة أهل الكتاب في التفريق بينهم حسب تفاوتهم من خلال المستويات التالية:

أ ـ في مستوى الإيمان بالله: "وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" (١٩٩).

ب ـ في الأمانة المعاملات: إذ يظهر ذلك في الأمانة كما تقدم توضيحه في الكلام على قوله تعالى: "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (آل عمران:٧٥ ـ ٧٧).

ج ـ مدى الالتزام بالأعمال الصالحة؛ قال تعالى: " لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ" (آل عمران:١١٣ ـ ١١٥).

المبحث الخامس
تقوية اللحمة الداخلية وأثرها في التعايش السلمي من خلال السورة

وهي عامل أساس في كسب ثقة الغير، وتحقيق أكبر قدر من المكاسب في التعامل مع الآخرين؛ وقد بنته السورة على أساسين:

المطلب الأول: الاعتصام بحبل الله ونذم الفرقة:

قال تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (آل عمران: ١٠٣).

وقد أشار الإمام الشوكاني إلى بعض معاني ما أرشدت إليه الآية من وضرورة وحدة الصف، والبعد عن الخلافات، ووجوب التزام المحبة بين المسلمين التي هي نعمة كبرى أنهى الله بها ما كان من عداوات دامية بين الأشقاء في الجاهلية؛ فقال: " قَوْلُهُ: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً؛ الْحَبْلُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ: السَّبَبُ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْبُغْيَةِ، وَهُوَ إِمَّا تَمْثِيلٌ، أَوِ اسْتِعَارَةٌ. أَمَرَهُمْ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ بِالْقُرْآنِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ النَّاشِئِ عَنِ الِاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَعْدَاءَ مختلفين يقتل بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَيَنْهَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَأَصْبَحُوا بِسَبَبِ هَذِهِ النِّعْمَةِ إِخْوَانًا، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْحُفْرَةِ بِالْإِسْلَامِ.."[١].

كما أوضح السعدي أهمية الاعتصام بحبل الله والاجتماع عليه في تحقيق المقاصد العامة للشرع، وحصول المصالح، ودفع المفاسد، وبث روح التعاون على الخير، والتخلص من موروث الجاهلية، وسلبياتها؛ ومنها الصراعات، والاقتتال لأتف لأسباب، الذي حلت محله رحمة الإسلام وألفته محبته؛ فقال: " فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي

١ ـ فتح القدير: ٤٢١/١.

تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء} يقتل بعضكم بعضا، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضا، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالاة بعضهم لبعض، ولهذا قال: {فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ...}[1].

وقد أشار ابن عاشور إلى أهمية التعبير بالاعتصام في الدلال على الاحتماء والتماسك والقوة، وتحقيق النماء في ظل التمسك الجماعي والانفرادي في ظل هذا الدين؛ وذلك حيث قال: " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا: ثَنَّى أَمْرَهُمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُ أَنْفُسِهِمْ لَأُخْرَاهُمْ، بِأَمْرِهِمْ بِمَا فِيهِ صَلَاحُ حَالِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ، وَذَلِكَ بِالِاجْتِمَاعِ عَلَى هَذَا الدِّينِ وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ لِيَكْتَسِبُوا بِاتِّحَادِهِمْ قُوَّةً وَنَمَاءً، وَالِاعْتِصَامُ افْتِعَالٌ مِنْ عَصَمَ وَهُوَ طَلَبُ مَا يَعْصِمُ أَيْ يَمْنَعُ"[2].

وفي هذا المجال تتضح دعوة السورة إلى رأب التصدع الداخلي؛ ذلك أن من المخاطر الكبرى عدم تماسك الصف الداخلي، وعدم توحيد المشاعر (تحبونهم ولا يحبونكم) في قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ" (آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠).

---

١ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١٤١/١.

٢ ـ التحرير والتنوير: ٣١/٤.

كما عرضت السورة مظاهر من الضرر الذي قد يسببه وجود جماعات لا تخدم المصالح العامة للأمة؛ بل تسعى لهزيمتها؛ تأمل قوله تعالى: "إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)، فعبارة (منكم) تعطي صورة عن المستوى الذي قد يصل إليه البعض من الإفساد من داخل الأمة إن لم يكن هناك وعي جماعي بضرورة توحيد الأهداف، والتعاون على تحقيقها.

ومن المسائل الأساس في تقوية الإرادة الداخلية للمجتمع؛

١ـ رفع المعنويات، وعدم الاستسلام لروح الهزيمة؛ سواء أكان ذلك الشعور ماديا أو معنويا؛ "وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠)

٢ـ الاعتماد على الله، وعدم التعويل على المخلوق؛ فغياب أي مخلوق مهما كانت مكانته لا ينبغي أن يؤثر في ارتفاع معنويات المسلم : "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ" (آل عمران: ١٤٤)

٣ـ تجنب ثنائية الإرادة: خاصة في مواطن المواجهة؛ فعلى المؤمن أن يتخلص من الركون لإرادة الدنيا، ويخلص عمله للآخرة؛ فمن أسباب ما حل بالمسلمين يوم أحد أن بعضهم كان يريد الدنيا؛ قال تعالى: " وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (١٥٢ـ ١٥٣).

المطلب الثاني: السعي في الإصلاح وتحمل المسؤولية:

فمكانة الامة تتجلى في كونها أخرجت للناس، وتحملت مسؤولية الأنبياء؛ وبقدر رعايتها لتلك الأمانة يقوى تأثيرها، وتتبوأ المكانة اللائقة بها بين الأمم؛ قال تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ" (آل عمران: ١١٠).

فهذه الآية اشتملت على مدح هذه الآمة؛ لكنه مدح مشروط بسعيها في الإصلاح، وتحقيقها لمتطلبات الإيمان؛ قال السعدي: "يمدح تعالى هذه الأمة، ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة"[١].

وقد ورد في السورة قبل هذا تحميل الأمة مسؤولية الإصلاح نيابة عن الرسل بصيغة الأمر الدال على الإلزام، مصحوبا بالحث على وحدة الصف، بصيغة النهي عن الفرقة؛ قال تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ" (آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥).

وإن كان كثير من أهل العلم قيدوا الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بأن يكون من أهل العلم، وأصحاب المسؤوليات؛ فقالوا " بِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، يَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كَوْنَ مَا يَأْمُرُونَ بِهِ: مَعْرُوفًا، وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ: مُنْكَرًا"[٢] قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الْأَوَّلُ أَصَحُّ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَقَدْ عَيَّنَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ

١ ـ تفسير السعدي، ص: ١٤٣.

٢ ـ فتح القدير للشوكاني: ٤٢٣/١.

بِقَوْلِهِ: " الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ" [الحج: ٤١] الْآيَةَ، وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ مُكِّنُوا"[١].

وهذا صحيح لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتطلب مستوى معرفيا لتميز الحق من الباطل، ولابد فيه أحيانا من سلطة تتدخل عند الضرورة لمنع المفاسد المترتبة عنه.

وعلى كل فهذه القضية تدل على أهمية المسؤولية الملقاة على عاتق هذه الأمة، وارتباطها بإصلاح أنفسها أولاً، ثم تصدير الإصلاح إلى الغير في ثوب لائق بطبيعة العصر ومتطلبات الشرع، وفي ضوء التعاليم القرآنية المتسمة بالرحمة والحكمة.

١ ـ تفسير القرطبي: ١٦٥/٤،

الخاتمة:

الحمد لله على إتمام هذا العمل، وقد كان التطواف بين فجاج الآيات القرآنية، وتفيؤ ظلال معانيها قد قاد إلى الخلوص إلى مجموعة من النتائج من أهمها تركيز القرآن على ضرورة التعايش السلمي، والتعاون على ذلك؛ وقد جاء ذلك من خلال التعبير بألفاظ عامة، مثل الناس، وكافة، والعالمين ... مع كثرة المعاني القرآنية الدالة على الرحمة والتعاون، والتحاور، والإصلاح؛ وهي أهم مقومات التعايش السلمي.

لقد رسم القرآن في أكثر من موضع طرق الوقاية من العنف، ووضع أسسا لتقوية العيش في أمان وسلام لجميع الناس، ومن المعروف أن الوقاية خير من العلاج.

وتدل كثرة ورود لفظ السلم في القرآن الكريم على أن الإسلام أعطى هذا الجانب عناية خاصة؛ وأن مقاصد الشرع تصب في ترك العنف، ومنع ما يؤدي إليه من فساد وتباغض، و تشجع على كل ما يؤدي إلى الدخول في الصلح والتعاهد على ترك كل سوء ، والتفاهم على ما يحقق مصالح الأمة، سواء أوقع ذلك بعد صراع، أم كان منشؤه تفاهم لا نزاع قبله.

علاوة على تسمية الدين بالإسلام، واختيار السلام شعارا للتحية بين أهله.

وقد كفل الإسلام المساواة في الحقوق العامة للبشر؛ فلم يفرق القرآن الكريم في الإحسان إلى المحتاجين ـ مثلا ـ بين المسلمين وغيرهم؛ خاصة في الحالات الإنسانية الملحة؛ كإطعام الأسير واليتيم والمسكين، فالله أثنى على من يعطي هؤلاء المذكورين في الآية واشباههم ممن يحتاجون إلى المساعدة الأسبقية في الإطعام إيثارا على النفس ـ دون تمييز ـ؛ بل إن الله تعالى قال: " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"؛ وبذلك حث على إقامة المشاريع الخيرية التي يهتم أصحابها بمساعدة الضعاف من كل الأصول دون تمييز.

ومن تأمل الأسلوب القرآني وجده مليئا بما يدل على التلطف في الخطاب، واختيار الألفاظ الجامعة: "يا بني آدام ..."، "يا أيها الناس ..."، "يا أهل

الكتاب ... " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" (البقرة: ٤٧).

وقد جاءت سورة آل عمران منسجمة مع النسق القرآني تذكر بوحدة الأصل والخالق والموطن والدين؛ وكلها مقومات تجعل البشر قادرين على أن يكونوا يدا واحدة، متعاونين، منسجمين مع الخطاب القرآني الذي يجمع ولا يفرق، و يدعو إلى التي هي أقوم في كل نواحي الحياة؛ بدءا بتوحيد خالق واحد؛ منفرد بكل صفات الكمال ...، مرورا بالمعاملات القائمة على العدل بين الناس، والمساواة بين مختلف طبقات المجتمع، وصولا إلى السلوك المستقيم الذي يقوم على الإيثار والرحمة والمحبة.

وعند التأمل في السورة نجدها أوردت ثلاث ركائز للتعايش السلمي؛ تقوم على:

ـ البذل في الرخاء والشدة؛ دون تمييز بين المستفيدين على أساس العرق أو المذهب؛ خاصة في الحالات الإنسانية الملحة؛ وهذا الجانب يمكن أن يعتبر دلالة على ضرورة استخدام الوسائل المادية في مساعدة الآخرين، والسعي في تحسين أوضاعهم المعيشية، وهو من أهم عوامل الوحدة والمحبة بين البشر..

ـ العفو عن الناس، وضبط النفس، وعدم الرد على الإساءة بمثلها، والشعور بالرقابة الإلهية؛ وهذه أمور تدل على قمة الأخلاق التي توصل صاحبها إلى مرتبة الإحسان، وتجعله مصدر خير أينما أقام أو ظعن، وتحببه إلى الآخرين، وتقضي على نوازع الشر بين البشر، وتعين على تكوين بيئات الإصلاح والخير.

ـ التوبة من كل الذنوب، والرجوع إلى الله عند الوقوع في أي خطإ بشري، وهي وسيلة إلى القرب من الله، وتجاوز العثرات، ومحو آثارها.

وقد جمعت السورة كل أوجه أسباب التعايش السلم بين الشعوب؛ فبينت أن لتوحيد الله تعالى الأثر الأعظم في الانسجام بين البشرية، والوصول بها في هدف واحد آمن، دلتها عليه رسل الله منذ آدم إلى خاتمهم محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهو عبادة الله التي خلقوا من أجلها، كما أرشدت إلى أن للإنفاق في أوجه الخير أهميته الكبرى في نيل مرضاة الله، وزرع المحبة بين الناس، وتأليفهم على الحق،

وعرجت على أن للأخلاق الحسنة مفعولها الكبير في التعايش المثالي بين البشر؛ ولذا دعت السورة إلى التحلي بأخلاق سامية في التعامل مع الناس.

وهذه كلها أمور تجعل صاحبها في مقدمة ذوي الاستحقاق للدرجات العالية من التحكم في النفس، وحملها على التعاون مع الغير، وكبح جماحها، ومقابلة الشر بالخير.

وقد أعطت السورة مساحة كبيرة للحوار الذي يعضض التعايش؛ ويؤدي إلى تهيئة الأرضية المناسبة للوصول إلى حلول سلمية لجل القضايا المتنازع عليها؛ ولاشك أن تطابق المواقف العملية مع الجوانب النظرية يوضح مدى موضوعية الشخص، وقدرته على الوفاء بالتزاماته عمليا، ومن خلال ذلك تتحدد مصداقيته، ومدى ثقة الناس به.

وقد تأسست معاملة أهل الكتاب وغيرهم في السورة على شدة الإنصاف؛ تجلى ذلك في أسلوب خطابهم، وفي دعوتهم إلى توحيد الرب، و الإيمان بالرسلات السماوية كلها، دون استثناء؛ وإلى الوفاء للكل بحقوقه، وإلى عدم تجاوز أي مخلوق كان لحدوده.

نسأل الله أن نكون وفقنا في هذا العمل المبارك ـ بإذن الله ـ إلى إبراز أهم ما كنا نصبو إليه من نقاط مضيئة في طريق المقومات الأساسية للتعايش بين البشر على أسس من المحبة والتعاون والإصلاح والرفق على ضوء التعاليم القرآنية السمحة، وخاصة ما ظهرت معالمه منها في سورة آل عمران التي برزت فيها الأبعاد الكبرى للقواسم المشتركة بين البشر؛ والتي يمكن من خلالها إقامة نظام عالمي يضمن التكافل والسلم للمعمورة كلها في أعدل حكم ، وأحكم تعامل، وأسعد حياة.

وما كان فيه من توفيق فمن الله، نسأله القبول والرضا، وتأليف القلوب على ما يحب يرضى، وأما النقص فمنا ومن الشيطان نعوذ بالله منه ومن مكايده التي تفرق الناس، وتزرع العداوات بينهم، وتؤدي إلى التحريش بينهم.

والله تعالى أعلم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفهارس

ـ القرآن الكريم.
١ ـ انبعاث الإسلام في الأندلس/ علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م،
٢ ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك/ لابن هشام، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د ، ت)،
٣ـ تاج العروس للزبيدي، تحقيق : مجموعة من المحققين، الناشر : دار الهداية (د، ت).
٤ ـ التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه، مؤلف الأصل: محمد بن حبان، أبو حاتم، الدارمي، ترتيب: الأمير أبي الحسن علي بن بلبان، مؤلف التعليقات الحسان: الألباني ، الناشر: دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
٥ ـ تفسير التحرير والتنوير/ محمد الطاهر ابن عاشور الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٦ ـ تفسير الشعراوي/ الخواطر، الناشر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧.
٧ ـ تفسير الطبري، تحقيق: محمد أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
٨ ـ تفسير القرطبي، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
٩ ـ تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ.
١٠ ـ تفسير المنار/ محمد رشيد رضا ، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر : ١٩٩٠ م.

١١ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

١٢ ـ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣ـ ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

١٤ـ ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

١٥ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٦ـ شرح ألفية ابن مالك/ لابن عقيل، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر : دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة : العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

١٧ ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية/ لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـم.

١٨ ـ : الصداقة والصديق، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: الدكتور إبراهيم الكيلاني، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان، دار الفكر - دمشق – سورية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م.

١٩ ـ فتح القدير /الشوكاني ، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

٢٠ ـ القاموس المحيط / الفيروز أبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٢١ ـ الكشاف للزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ط: ٣ - ١٤٠٧ هـ،
٢٢ ـ لسان العرب /: ابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى(د، ت).
٢٣ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ط: ٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.
٢٤ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (صحيح مسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢٥ المصباح المنير/ أبو العباس الحموي ، الناشر المكتبة العلمية بيروت (د، ت).
٢٦ـ مقاييس اللغة / ابن فارس ، المحقق : عبد السَّلام محمد هَارُون، الناشر : اتحاد الكتاب العرب، الطبعة : ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.